

البنية اللغوية تركيباً ودلالة في ديوان " كزهر اللوز أو أبعد " للشاعر محمود درويش

د. محمد مصطفى القطاوي

كلية الآداب - جامعة الأقصى - غزة - فلسطين

ملخص:

هذا بحث يعالج ظاهرة البنية اللغوية عند الشاعر محمود درويش من الناحيتين التركيبية والدلالية، في ديوانه " كزهر اللوز أو أبعد " وهي مسألتي تنسج على اللفظة الواحدة وعلاقتها البنيوية بما قبلها وما بعدها من كلمات، ودورها في انتظام السياق الشعري والنسق البياني والإيقاعي نبرة وتنغيمًا، إلى جانب اتساق الجمل والعبارات في نظام محكم متوازن، وقد لاحظ الباحث أن هذه الأمور غير متوفرة لدى محمود درويش وشعراء الحداثة بوجه عام، وقد أشار الباحث إلى ذلك فيما تناول من قصائد كنماذج للدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: - محمود درويش - البنية اللغوية - الآن...في المنفى - كزهر اللوز أو أبعد - فكر بغيرك - حين تطيل التأمل

Abstract :

This research deals with linguistic construction in the poetry of Mahmood Darweesh.

Specially in that of construction and deep meanings on the other side .

this subject involves the word and its Conduct with the whole construction of sentences and paragraphs.

تمهيد:

استوقفتني - منذ فترة ليست بالقصيرة - ظاهرة الحداثة في الشعر العربي الحديث، منذ أن أطلت على الوجود في أخريات القرن المنصرم، استوقفتني في تراكيبها اللفظية، وفي معجمها اللغوي، وفي دلالاتها المعنوية، وإن كان الرمز هو المهيمن والمسير للسياقات التعبيرية في هذه الموجودات الجديدة .

وقبل أن نخوض في هذه المناهات، يحسن بنا أن نقف قليلاً عند الشاعر محمود درويش كعلم أو كرمز بارز من هذه الطائفة التي امتطت صهوة التجديد في البناء الشعري وفق مناهج غريبة عن الموروث من الشعر العربي المؤصل عبر عصور متلاحقة ضاربة بجذورها في أعماق الزمان وامتداد المكان.

إن الشاعر محمود درويش شاعر فلسطيني نبت نبته في الأرض المحتلة، وعاش هموم المأساة الفلسطينية منذ نعومة أظفاره، ولعله هجر من بلديته - قرية البروة - في الشمال حيث الجليل الأعلى ، وهو ابن ست سنين، كما تقول سيرته الذاتية، فهو من مواليد سنة 1942م، ومن هنا فإنه اكتوى بنار المأساة صغيراً، وكبر وكبرت معه هموم الشعب المهجر، ولما سأل الشعر على لسانه، امتشق حسام الكلمة؛ ليعبّر

عَنْ هَذَا الِهَمِّ الْكَبِيرِ، إِلَّا أَنَّهُ -وَلَا مَرَّ مَا -أَخَذَ بِالثَّرَانِيمِ الْأَعْجَمِيَّةِ الَّتِي كَانَ لَهَا تَأْثِيرٌ حَاسِمٌ فِي كَمِّ هَائِلٍ مِنْ شِعْرَاءِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا سِيَّما شِعْرَاءِ الْعِرَاقِ، كَبَدَرَ شَاكِرِ السَّيَّابِ، وَنَازَكَ الْمَلَائِكَةَ، وَالْبَيْيَاتِي، وَشِعْرَاءَ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَأَخْصُ بِالذِّكْرِ هُنَا أَدُونِيسُ السُّورِي، الَّذِي كَانَ الدَّاعِيَةَ الْأَوَّلَ لِهَذَا اللَّوْنِ الْجَدِيدِ مِنَ الشَّعْرِ، وَهُوَ شِعْرُ النَّصِّعِيلَةِ أَوْ الشَّعْرِ الْحَرِّ.

وَلَقَدْ أَدْلَى مَحْمُودُ دَرْوِيشُ بَدَلُوهُ؛ لِيَمْتَحَ مِنْ هَذِهِ الْبُثْرِ صَفَا مَاؤُهَا أَوْ كَانَ كَدْرًا، إِلَّا أَنَّهُ عَلَى آيَةٍ حَالٍ فُرْضَ فُرْضًا عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِحُكْمِ الْمُعَاصِرَةِ، وَدَوَاعِي التَّطَوُّرِ وَالتَّجْدِيدِ الَّتِي تُحْدِثُهُ هَذِهِ السُّنَنُ الْوَافِدَةُ.

لَقَدْ نَهَجَ مَحْمُودُ دَرْوِيشُ نَهَجَ الْحَدَاثَةِ، وَتَشَرَّبَ مَشَارِبَهَا كَمَا أَشْرَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حُبَّ الْعَجَلِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَهُوَ لَمْ يَكْتَفِ بِسِيَاقَاتِهَا التَّعْبِيرِيَّةِ فَحَسَبَ؛ بَلْ إِنَّهُ اتَّخَذَ مِنَ الرَّمْزِيَّةِ دِيدَنًا وَأَسْلُوبًا لِتَهْوِيَمَاتِهِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مَأْسَاةِ شَعْبِهِ، وَهَذَا مَا سَنَتَنَاوَلُهُ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّوْضِيحِ فِي دِرَاسَتِنَا هَذِهِ .

تَقْدِيمُ:

مَوْضُوعُ الْبُنْيَةِ اللَّغَوِيَّةِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ بِعَامَّةٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الشَّائِكَةِ الَّتِي حَيَّرَتْ عُلَمَاءَ اللُّغَةِ وَالْمَخْتَصِّينَ بِهَذِهِ الدِّرَاسَاتِ حَيْرَةً كَبْرَى، وَلَا سِيَّما بَعْدَ أَنْ هَبَّتْ رِيَّاحُ التَّجْدِيدِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؛ لِتَهْزَأَ أَرْكَانَ الثَّقَلِيدِ وَالثَّقَلِيدِيِّينَ مِنْ شِعْرَاءِ الْفُصْحَى وَأَرْبَابِ الْبَيَانِ.

لَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الرِّيَّاحِ الْوَافِدَةِ تَأْثِيرٌ هَائِلٌ فِي النَّظْمِ، وَصَيَغِ التَّعْبِيرِ وَالتَّرَاكيبِ، وَالدَّلَالَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالتَّفْسِيَّةِ، أَوْ مَا يُسَمُّونَهَا سِيكُولُوجِيَّةَ الْخِطَابِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْحَدِيثِ، وَمُنْذُ أَنْ بَرَزَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ الْجَدِيدَةُ الْغَرِيبَةُ، وَجَدَ لَهَا أَنْصَارٌ وَأَعْوَانٌ، وَصُنِّفَتْ فِيهَا مُصَنَّفَاتٌ ذَاتُ عَدَدٍ مُنْذُ بَدَايَاتِ الْقُرْنِ الْمَاضِي، مِنْهَا: الْبُنْيَةُ اللَّغَوِيَّةُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاصِرِ⁽¹⁾، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا⁽²⁾، وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ وَالْمُعْجَمِ الْعَرَبِيِّ⁽³⁾، وَمَدْخُلٌ إِلَى عِلْمِ الدَّلَالَةِ⁽⁴⁾، وَاللُّغْظُ وَالْمَعْنَى بَيْنَ الْأَيْدِيُولُوجِيَا وَالتَّأْسِيسِ الْمَعْرِفِيِّ لِلْعِلْمِ⁽⁵⁾، وَالْأُبْنِيَّةُ الصَّرْفِيَّةُ وَدَلَالَتُهَا فِي شِعْرِ عَامِرِ ابْنِ الطُّفَيْلِ⁽⁶⁾، وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ⁽⁷⁾، وَفِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ⁽⁸⁾، وَدِرَاسَاتُ لُغَوِيَّةٍ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْبُنْيَةِ وَالدَّلَالَةِ⁽⁹⁾؛ وَمِنْ الْمُحْدَثِينَ: الْخِطَابُ الشَّعْرِيُّ عِنْدَ دَرْوِيشِ⁽¹⁰⁾، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ لَمْ تَتَوَعَّلْ فِي مَجَاهِلِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ فَلَمْ تَمَسَّ جَوْهَرَهُ، وَتَفْ بِنَزَعَاتِ رُوحِهِ، وَلَمْ تَتَعَمَّقْ، لِتَرِيطَ بَيْنَ الْكَلِمَةِ الشَّعْرِيَّةِ وَبَيْنَ الْإِحْسَاسِ الْمُنْبَتِّقِ عَنْهَا، وَبَيْنَ الْجُمْلَةِ فِي سِيَاقِهَا وَالْعِلَاقَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّصِّ كَكُلِّ

وَبَيْنَ الْجَانِبِ السِّيكُولُوجِيِّ الْمُتَكَيِّ عَلَى الدَّلَالَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تُرْخِيهَا الْعِبَارَةُ ظِلَالًا قَدْ تَمْتَدُّ بَعِيدًا أَوْ قَرِيبًا.

فَالسَّامَرَانِيُّ مَسَّ هَذَا الْجَانِبَ مَسًّا خَفِيفًا فِي وَقُوفِهِ عِنْدَ شِعْرَاءِ الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ، وَشِعْرَاءِ الْعِرَاقِ الْمُجَدِّدِينَ أَوْ شِعْرَاءِ الْحَدَاثَةِ، وَكَانَ نَاقِدًا لِهَذِهِ الْبَدْعَةِ أَكْثَرَ مِنْهُ مُحَلًّا وَغَائِرًا فِي أَعْمَاقِ فَنِّ الْقَصِيدِ، وَكَذَا غَيْرُهُ مِمَّنْ تَنَاوَلُوا دِرَاسَاتٍ عِلْمِ الدَّلَالَةِ وَالرَّبْطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّرَاكِيِبِ الْعَرَبِيَّةِ نَحْوًا وَصَرَفًا، وَأَحْيَانًا بَيَانًا كَمَا لَاحَظْنَا عِنْدَ صَاحِبِ أَبُو حَمِيدَةَ فِي كِتَابِهِ الْخُطَابُ الشَّعْرِيُّ عِنْدَ - مَحْمُودِ دُرُوشِ - دِرَاسَةً أُسْلُوبِيَّةً، وَهِيَ دِرَاسَةٌ تَنَاوَلَتْ عِلْمَ الْبَيَانِ وَعِلْمَ الْمَعَانِي وَالنَّحْوِ، وَلَكِنَّهُ مَرَّ عَلَى التَّرَاكِيِبِ النُّحُوتِيَّةِ مُرُورًا سَرِيعًا⁽¹¹⁾.

وَأَمَّا غَيْرُهُ فَكَانَ نَاقِلًا لِآرَاءِ الْغُرَبِيِّينَ وَأَصْحَابِ مَدْرَسَةِ الْحَدَاثَةِ أَوْ الشَّعْرِ الْحَرِّ مُؤَيِّدِينَ وَمُؤَازِرِينَ.

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا أَمَامَ تَنَاوُلٍ جَدِيدٍ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَهِيَ الْوُقُوفُ عِنْدَ بَعْضِ أَشْعَارِ مَحْمُودِ دُرُوشِ، لِنَرَى مَدَى تَأَثُّرِهِ بِالْحَدَاثَةِ، ذَلِكَ التَّأَثُّرُ الَّذِي انْعَكَسَ دُونَ رَيْبٍ - عَلَى كَلِمَاتِهِ، وَجَمَلِهِ، وَعِبَارَاتِهِ، وَفِكْرِهِ، وَكَيْفَ كَانَ وَرُودُ هَذِهِ النُّسْقِ التَّعْبِيرِيَّةِ مُنْسَجَمًا مَعَ ثِقَافَتِهِ الْاِسْتِرَاقِيَّةِ الشَّيْوَعِيَّةِ، فَهُوَ عِلْمٌ بَارِزٌ مِنْ أَعْلَامِ الْحَزْبِ الشَّيْوَعِيِّ فِي فِلَسْطِينِ، إِلَى جَانِبِ تَأَثُّرِهِ بِالثَّقَافَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي شَكَلَتْ نَسِيجًا مُتَكَامِلًا فِيهِ خُيُوطُ الْأَسَاطِيرِ، وَالْإِلَهِيَّاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ التَّوْجُّهَاتِ، إِلَى جَانِبِ الرَّمْزِ الْمُحِيرِ الَّذِي اسْتَقْبَاهُ مِنْ يَنَابِيعِ الْغُمُوضِ الْغَرِيبَةِ، وَالضَّبَابِيَّةِ الدَّاكِنَةِ الَّتِي غَطَّتْ سَمَاءَ الشَّرْقِ، فَكَادَتْ أَنْ تَحْجَبَ الرُّؤْيَى؛ لِيَتَحَبَّطَ الدَّارِسُونَ فِي ظِلْمَةِ حَالِكَةٍ، دُونَ هُدًى وَلَا ضِيَاءٍ وَلَا سِرَاجٍ مُنِيرٍ، فَتَبَاعَدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَصَالَةِ الثَّرَاثِيَّةِ الْخَالِدَةِ، وَكَأَنَّنَا أَمَامَ طَلَاسِمٍ وَأَلْغَازٍ غَامِضَةٍ، وَهُوَ هُنَا يَكَادُ أَنْ يَكُونَ مُفْرَعًا مِنَ الْمَادَّةِ وَالرُّوحِ.

هَذَا مَا نَحَاوُلُ أَنْ نَتَلَمَّسَهُ فِي بِنَاءِ كَلِمَاتِهِ وَنُسْقِ تَعْبِيرَاتِهِ، وَمَوَاطِنِ اللَّفْظِ أَوْ مَوَاقِعِهِ فِي سِيَاقِهِ، وَتَنَوُّعِ أَسَالِيْبِهِ، وَعِلَاقَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ وَبِالْفِكْرِ الْمُهْجَنِّ وَاللُّغَةِ الْمُعَاقَةِ الَّتِي حَمَلُوهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا، فَلَمْ تَقَوْ عَلَى النُّهُوضِ. الْبَنِيَّةُ اللَّغُويَّةُ تَرْكِيْبًا وَدَلَالَةً:

لَقَدْ حَسَمَ مَحْمُودُ دُرُوشِ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ مِنْذُ الْبِدَايَةِ فِي عِبَارَةٍ لِأَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ، أَوْرَدَهَا الثَّانِي فِي كِتَابِهِ: الْإِمْتِنَاعُ وَالْمَوَاسَّةُ اللَّيْلَتِ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ حَيْثُ يَقُولُ أَبُو حَيَّانَ: "أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا قَامَتْ صُورَتُهُ بَيْنَ نَظْمٍ كَأَنَّهُ نَثْرٌ، وَنَثْرٍ كَأَنَّهُ نَظْمٌ"⁽¹²⁾، تِلْكَ الْعِبَارَةُ صَدَرَتْ بِهَا مَحْمُودُ دُرُوشِ دِيَوَانَهُ الْمَوْسُومُ بِ"كَرْهَرِ اللَّوْزِ أَوْ أَبْعَدُ"⁽¹³⁾، وَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ يُبَرِّزُ مِنْهَجَهُ الشَّعْرِيَّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْحَاهُ

اللُّغَوِيُّ الَّذِي انْتَحَاهُ اقْتِبَاسًا وَمَحَاكَاةً، لِمَنْ حَطَّبُوا فِي حَبْلِ الْحَدَاشَةِ أَوْ مَا يَسْمُوْنَهُ بِـ (الشَّعْرُ الْحَرُّ) أَوْ (شَعْرُ الثَّمْعِيَّةِ)، أَوْ (الشَّعْرُ الْمَنْثُور)، تِلْكَ الْمُسَمَّيَاتِ الَّتِي سَوَّقَهَا وَرَوَّجَ بِضَاعَتِهَا أَدُونِيسُ السُّورِيُّ الْعَلَوِيُّ الَّذِي انْبَهَرَ بِمَا اسْتَحْدِثَ فِي عَالَمِ الشَّعْرِ عَلَى يَدِ الْمُبْدِعِينَ مِنْ شُعْرَاءِ فَرَنْسَا مِنْذُ مَطْلَعِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ، فَتَلَقَّاهَا وَنَسَجَ عَلَى مَنَاطِلِهَا وَنَقَّلَهَا إِلَى الشُّعْرَاءِ الشَّبَابِ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، وَسَبَقَهُ وَلَّا سِيَمَا الْعِرَاقِيِّونَ مِنْ أَمْثَالِ بَدْرِ شَاكِرِ السِّيَّابِ، وَنَازَكَ الْمَلَانِكَةَ، وَالْبَيَّاتِي، قَدْ كَانَ مَحْمُودُ دَرْوِيشٍ مِنَ الَّذِينَ تَسَارَعُوا إِلَى الْإِنْخِرَاطِ فِي سِلَكَ هَذَا التَّطَوُّرِ، أَوْ التَّدَهُورِ.

إِذَا، فَالْمَسْأَلَةُ مُبَرَّرَةٌ وَمُبَرِّمَجَّةٌ عِنْدَ مَحْمُودِ دَرْوِيشٍ مِنْذُ الْبِدَايَةِ، حَيْثُ إِنَّهُ أَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّرْكِيْبِ اللَّغَوِيِّ الْفَصِيحِ حِجَابًا مَسْتَوْرًا أَوْ سَدًّا مَنِيْعًا، وَيَبْدُو لِي أَنَّ مَحْمُودَ دَرْوِيشٍ لَمْ يَعْ عِبَارَةَ أَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ وَمَا تَرْمِي إِلَيْهِ، ذَلِكَ - أَنَّهُ أَحْسَنَ الْكَلَامَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ فِي عِبَارَةِ التَّوْحِيدِيِّ - هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي انْبَهَرَ بِهِ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حِينَ سَمِعَهُ فَأَبْدَى رَأْيَهُ فِيهِ أَمَامَ رُعَمَاءِ الْكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ وَاصِفًا إِيَّاهُ: "إِنَّهُ لَيْسَ بِشَعْرٍ وَلَيْسَ بِنَثْرٍ، أَعْلَاهُ مُورِقٌ وَأَسْفَلُهُ مُغْدِقٌ، مُعْجَزٌ فِي نَظْمِهِ"⁽¹⁴⁾، مُعْجَزٌ فِي دِلَالَتِهِ، هَذَا هُوَ أَحْسَنُ الْكَلَامِ يَا دَرْوِيشُ، وَهَلْ هُنَاكَ أَحْسَنُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ، وَلَكِنْ شَاعِرُنَا رَانَ عَلَى قَلْبِهِ مَا نَحَا بِهِ مَنَحَاهُ، فَلَمْ يُدْرِكْ أَسْرَارَ الْبَلَاعَةِ، وَدَلَائِلَ الْإِعْجَازِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى هَذِهِ الْكُنُوزِ الْبَثَّةِ.

إِنَّمَا فِي تَنَاوُلِنَا لِبَعْضِ قِصَائِدِهِ - سَتَتَوَجَّهُ إِلَى مُعَالَجَةِ بَعْضِ التَّرَاكِيْبِ الصَّرْفِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْكَلِمَةِ وَالْعِبَارَةِ الشَّعْرِيَّةِ، وَمَدَى تَلَاوُمِ كُلِّ بَنِيَّةٍ مَعَ سِيَاقِهَا وَنَسَقِهَا وَدَلَالَاتِ كُلِّ ذَلِكَ مِنَ النَّاحِيَّتَيْنِ الصَّوْتِيَّةِ، أَيْ: الْمَوْسِيقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِإِحْسَاسِ الشَّاعِرِ وَوُجْدَانِهِ حِينَ سَالَتْ هَذِهِ الشَّجَرِبَةُ عَلَى قَلَمِهِ.

الْقَصِيدَةُ الْأُولَى: فَكْرٌ بِغَيْرِكَ

يَقُولُ مَحْمُودُ دَرْوِيشُ:

وَأَنْتَ تَعِدُّ فَطُورَكَ. فَكْرٌ بِغَيْرِكَ لَا تَنْسَ قُوْتَ الْحَمَامِ

وَأَنْتَ تَحْوَضُ حُرُوبَكَ، فَكْرٌ بِغَيْرِكَ لَا تَنْسَ مَنْ يَطْلُبُونَ السَّلَامَ

وَأَنْتَ تُسَدِّدُ فَاتُورَةَ الْمَاءِ، فَكْرٌ بِغَيْرِكَ مَنْ يَرْضَعُونَ الْقِمَامَ

وَأَنْتَ تَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ، بَيْتِكَ، فَكْرٌ بِغَيْرِكَ لَا تَنْسَ شَعْبَ الْخِيَامِ

وَأَنْتَ تَنَامُ وَتُخْفِي الْكَوَاكِبَ، فَكْرٌ بِغَيْرِكَ ثَمَّةٌ مَنْ لَمْ يَجِدْ حَيْزًا لِلْمَنَامِ⁽¹⁵⁾

إِنَّ الَّذِي يَلْفَتْ نَظَرُنَا فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ قَصِيدَتِهِ " فَكَّرَ بِغَيْرِكَ "، هُوَ فِعْلُ الْأَمْرِ الْبَسِيطِ " فَكَّرَ " الَّذِي تَكَرَّرَ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَهُوَ تَكَرَّرَ فِيهِ رَخَاوَةٌ تَأْتَتْ مِنْ كَثْرَةِ هَذَا التَّكَرُّارِ الْمُجْمَلِّ، فَأَحْدَثَ شَيْئًا مِنَ السَّامَةِ عَلَى سَمْعِ الْقَارِئِ وَلَا نَدْرِي لِمَنْ يُوَجِّهُ الشَّاعِرُ هَذِهِ الْأَوَامِرَ، أَهِيَ مُوجَّهَةٌ لِلْأَعْدَاءِ أَمْ لِلْأَصْدِقَاءِ، أَمْ لِلنَّائِمِينَ عَلَى أَسِرَّةٍ مُتَرَفِّينَ، أَمْ لِلْحَالِمِينَ الَّذِينَ يَعْدُونَ النُّجُومَ، عَلَى رَأْيِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ حِينَمَا يَقُولُ :

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بَأَيِّ (16)

ثُمَّ تَأْتِي الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ الَّتِي عَطِفَتْ بِوَائِ الْحَالِ فِي قَوْلِهِ " وَأَنْتَ تَعِدُ فَطُورَكَ " وَجَاءَتْ فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٍ لِفَاعِلِ فِعْلِ الْأَمْرِ " فَكَّرَ " وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ مُتَنَوِّعَةً أَوْ مَرَكَّبَةً مِنَ الضَّمِيرِ " أَنْتَ " مَجْهُولُ التَّوَجُّهِ وَضِمْنُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ " تَعِدُ، نَحْوُ، تَعُودُ، تَنَامُ، وَتَمْضِي "، وَالْمُضَارِعُ الْمَجْرُومُ " وَلَا تَنْسَ "، الَّذِي تَكَرَّرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَكَذَلِكَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ الْمُسْتَدُّ إِلَى وَائِ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ " يَرْضَعُونَ الْغَمَامَ " إِنَّهَا جَمِيعًا تَرَكَيبٌ بَسِيطٌ، وَهِيَ أَمِيلٌ إِلَى لُغَةِ الْعَوَامِ حَتَّى اسْتِخْدَامِ " فَطُورَكَ "، وَهِيَ لَفْظَةٌ عَامِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الْمُضْحَى طَعَامُ الْإِفْطَارِ مِنَ الْفِعْلِ الرَّبَاعِيِّ الْمَزِيدِ أَفْطَرَ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي هَذَا الطَّعَامَ الْبَاكِرَ بِ" الْغَدَاةِ "، وَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَسَمِي هَذَا السَّحُورُ غَدَاءً؛ لِأَنَّهُ لِلصَّائِمِ بِمَنْزِلَتِهِ لِلْمُفْطَرِ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُنْتُ أَتَعَدَّى عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رَمَضَانَ، أَيُّ: أَسَحَّرَ (17).

وَلَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَثَرِ: أَنْتُمْ بَخِيرٌ مَا بَاكَرْتُمْ الْغَدَاءَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ رَضَعَ الْغَمَامَ، فَهَذَا شَيْءٌ غَمَامٌ، غَمَّ عَلَى أَبْصَارِنَا وَأَذْهَانِنَا كَمَا يَغْمُ الْهَلَالُ عَلَى رَاصِدِيهِ، قَالَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "فَإِذَا غَمَّ عَلَيْكُمُ الْهَلَالُ فَأَكْمَلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا" (18).

إِنَّهَا الرَّمْزِيَّةُ الْمُحِيرَةُ الْغَامِضَةُ الْمَعْمُضَةُ، إِنَّ الْأَبْيَاتَ تَجْرِي عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، لَيْسَ فِيهَا تَنَوُّعٌ فِي الْأَسَالِيِبِ بَيْنَ خَبَرٍ وَإِنْشَاءٍ بِأَغْرَاضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لَدَى الشُّعْرَاءِ الْمُحْوَلِ، فَهِيَ جَمَلٌ وَالْفَاضِلُ كُلُّهَا مِنَ الْقَرِيبِ يَعْرِفُهَا الطَّالِبُ فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِعْدَادِيَّةِ، وَلَا يَجْهَلُ التَّلْمِيذُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ طَائِفَةً مِنْهَا (19)، وَكَانَ صَاحِبُ النَّصِّ قَدْ أَدْرَكَ هَذِهِ الْأَلْفَافِ، فَكَانَتْ مِنْ مَادَّتِهِ اللَّغَوِيَّةِ، وَهُوَ حَدَثٌ صَغِيرٌ فِي الْمَرَحَلَةِ الْإِعْدَادِيَّةِ، وَهِيَ الْفَاضِلُ لَا تَنْبِي عَنْ دِلَالَتِهَا، وَكُلُّ مَا هُنَاكَ أَنَّهَا كَلِمَاتٌ مَرْصُوصَةٌ أَقْرَبَ إِلَى النَّثْرِ؛ بَلْ هِيَ نَثْرٌ مُجْمَلٌ بِأَحَاسِيْسٍ لَيْسَ فِيهَا حَرَارَةُ الشُّعْرِ وَمُوسِيقَاهُ بِإِيقَاعِهِ الَّذِي يَهْزُ وَجْدَانِ السَّامِعِ، وَهُوَ أَهَمُّ مَكُونَاتِ الْقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى جَانِبِ سِحْرِهَا الْبَيَّانِيِّ الْخَارِجِيِّ .

القَصِيدَةُ الثَّانِيَّةُ: الآن... في المَنْفَى
يَقُولُ مَحْمُودُ دَرْوِيشُ:

الآن، في المَنْفَى .. نَعْمَ فِي الْبَيْتِ،
فِي السَّتِينِ مِنْ عُمْرٍ سَرِيعٍ
يُوقِدُونَ الشَّمْعَ لَكَ
فَافْرَحْ، بِأَقْصَى مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْهُدُوءِ؛
لأنَّ مَوْتًا طَائِشًا ضَلَّ الطَّرِيقَ إِلَيْكَ
مِنْ فَرْطِ الزَّحَامِ وَأَجْلَكَ
فِي السَّتِينِ لَنْ تَجِدَ الْغَدَ الْبَاقِي
قُلْ لِلْحَيَاةِ، كَمَا يَلِيقُ بِشَاعِرٍ مُتَمَرِّسٍ
سِيرِي بِبُطْءِ كَالْإِنَاثِ الْوَاقِفَاتِ بِسُحْرِهِنَّ
وَكَيْدِهِنَّ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ نِدَاءٌ مَا خَفِيَ
هَيْتَ لَكَ مَا أَجْمَلُكَ! (20)

هَذِهِ قَصِيدَةٌ يُورِّخُ فِيهَا مَحْمُودُ دَرْوِيشُ لِعِيدِ مِيلَادِهِ السَّتِينِ، نَادِبًا وَنَاعِبًا، وَهُوَ
فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالرَّمْزِيَّةِ فِي كَلِمَةِ الْبَيْتِ، فِي الْمَنْفَى، وَيَبْقَى أَمْرُ
الْبَيْتِ غَامِضًا، هَلْ هُوَ غَرِيبٌ فِي وَطَنِهِ، مَنْفَى فِي بِلَادِهِ لَيْسَ مِنْهَا ؟ هَذَا شَيْءٌ مُغْلَفٌ
بِالرَّمْزِيَّةِ الْغَامِضَةِ .

قَالَ الْفَلَاظُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فِيهَا رُوحٌ، وَفِيهَا حَرَارَةٌ، وَوُزْنُ الرَّجَزِ مُسْتَعْلَنٌ
الْمُتَكَرِّرُ يُعْطِيهَا شَيْئًا مِنَ الْمَوْسِيقَا الْحَزِينَةِ، ثُمَّ إِنَّ الثَّرَائِطَ وَاضِحَ بَيْنِ الْكَلِمَاتِ
وَسِيَاقِهَا وَنَسَقِهَا التَّرْكِيبِيِّ، وَقَدْ رَبَطَ بَيْنَ الزَّمَانِ "الآن" وَالْمَكَانِ "الْمَنْفَى"، حَيْثُ
اسْمُ الْمَكَانِ هُنَا سَبْقُ بَحْرَفِ "فِي"، وَجَاءَ الْبَدَلُ "الْبَيْتِ"، غَرِيبًا شَيْئًا مَا؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ
بَدَلٌ مِنَ الْمَنْفَى فِي مَفْهُومِ الشَّاعِرِ .

وَ يُكَرِّرُ الشَّاعِرُ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ "فِي السَّتِينِ"، وَبَعْدَهَا "مِنْ عُمْرٍ"؛ لِتَأْخُذَ
الْمَجْرُورَاتُ بَعْضَهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ، تَرْسِيخًا لِفِكْرَةٍ مَا، وَهِيَ التَّمَرُّسُ فِي مَنْفَاهُ وَعَدَمُ
الْبَرَّاحِ مِنْهُ .

ثُمَّ يَأْتِي أَسْلُوبُ السُّخْرِيَّةِ وَالتَّهَكُّمِ فِي إِيرَادِهِ لِفِعْلِ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ " فَافْرَحْ "
وَكَيْفَ يَكُونُ الْفَرَحُ بِالْهُدُوءِ؟ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ.

وَقَدْ بَلَغَ الْعَنْصَرُ الثَّقَافِيُّ الدِّينِيَّ عَرْضًا فِي قَوْلِهِ حِينَمَا قَالَ : "هَيْتَ لَكَ"
وهي عِبَارَةٌ زَلِيخَةٌ لِسَيِّدِنَا يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَكَأَنَّهُ هُنَا يَسْتَعِيدُ أَوْ يَسْتَرْجِعُ
تَجْرِبَةً مَرَّبَهَا مَعَ الْإِنَاثِ الْوَاقِفَاتِ بِسُحْرِهِنَّ .

وَقَدْ تَنَوَّعَ الْأَسْلُوبُ هُنَا بَيْنَ خَبَرٍ وَإِنْشَاءٍ، فَفِي الْإِنْشَاءِ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ فِعْلُ الْأَمْرِ مِثْلَ "فَافْرَحْ، وَقُلْ، وَسِيرِي"، وَالْخَبَرِ فِي اسْتِخْدَامِ الْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ جَاءَ فِي قَوْلِهِ "يُوقِدُونَ الشَّمْعَ لَكَ" كَذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ الْمَنْسُوخَةِ فِي قَوْلِهِ "لَأَنَّ مَوْتًا طَائِشًا ضَلَّ الطَّرِيقَ إِلَيْكَ" وَالْقَصِيدَةَ فِي مُجْمَلِهَا ذَاتَ بُنْيَةٍ مَتَمَّاسِكَةٍ، وَتَرَكَيبَ مُتَرَابِطَةٍ، إِلَّا أَنَّ بِنَاءَهَا الْوَزْنِيَّ الْمَوْسِيقِيَّ، جَاءَ مُضْطَرِبًا فِي اسْتِخْدَامِ الْأَسْطَرِ الشَّعْرِيَّةِ وَلَيْسَ الْأَبْيَاتُ، وَلَوْ رَتَّبَهَا بِحَسَبِ الْأَبْيَاتِ، لَجَاءَتْ قَصِيدَةٌ ذَاتَ إِيقَاعٍ مُوسِيقِيٍّ مُؤَثِّرٍ. وَمِنَ الْمَلَاخِظِ أَنَّ الْقَصِيدَةَ خَلَّتْ مِنْ أَسْلُوبِ النَّدَاءِ الَّذِي كَانَ أَدَاةَ بَيْدِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ لِلْإِعْرَابِ عَنْ إِحْسَاسِ الْأَلَمِ وَالرَّثَاءِ وَالْحَيْنِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، كَمَا خَلَّتْ مِنْ أَسْلُوبِ الْأَسْتِفْهَامِ الَّذِي عَادَةً مَا يَتَوَزَّعُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى مَا يُرَادُ بِهِ التَّقْرِيرُ وَمَا يُرَادُ بِهِ الْإِنْكَارُ، وَمَا يَذْهَبُ لِإِفَادَةِ التَّوْبِيخِ وَالتَّهْكُمِ، ثُمَّ إِنَّ الْقَصِيدَةَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بَسِيطَةٌ غَيْرُ مُعَقَّدَةٍ، لَوْ لَا عُرُوقٌ مِنَ الرَّمْزِيَّةِ أَحْدَثَتْ فِيهَا شَيْئًا مِنْ غُمُوضِ الْمَبَانِي، وَاضْطِرَابِ الْمَعَانِي.

القَصِيدَةُ الثَّلَاثُ شُ : حِينَ تُطِيلُ التَّأْمَلَ

يَقُولُ مَحْمُودُ دَرَوِيشُ:

حِينَ تُطِيلُ التَّأْمَلَ فِي وَرْدَةٍ
جَرَحَتْ حَائِطًا وَتَقُولُ لِنَفْسِكَ
لِي أَمَلٌ فِي الشَّمَاءِ مِنَ الرَّمْلِ
يَخْضُرُ قَلْبُكَ
حِينَ تُرَافِقُ أَنْثَى إِلَى السَّيْرِكِ
ذَاتَ نَهَارٍ جَمِيلٍ كَأَيْقُونَةٍ
وَتَجَلُّ كَضَيْفٍ عَلَى رَقْصَةِ الْخَيْلِ
يَحْمَرُّ قَلْبُكَ ..
حِينَ تَعُدُّ النُّجُومَ وَتُخَطِّئُ بَعْدَ
الثَّلَاثَةِ عَشَرَ، وَتَنْعَسَ كَالطَّمْلِ
فِي زُرْقَةِ اللَّيْلِ
يَبْيِضُ قَلْبُكَ..
حِينَ تَسِيرُ وَلَا تَجِدُ الْحُلَمَ
يَمْشِي أَمَامَكَ كَالظِّلِّ
(21) يَصْفَرُّ قَلْبُكَ ..

هَذِهِ شَطَحَاتُ رُومَانِيَّةٍ عَاشَهَا الشَّاعِرُ حَقِيقَةً أَوْ خَيَالًا، فَهُوَ مُتَأَثِّرٌ بِالْفَلَسَفَةِ التَّأْمَلِيَّةِ شَأْنِ الرُّومَانِيِّينَ مِنْ شُعَرَاءِ الْغَرْبِ، وَلَاسِيَّامَا الْفَرَنْسِيِّونَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ مَادَّةً لِهَذِهِ التَّأْمَلَاتِ وَالْفَلَسَفَاتِ الْغَرِيبَةِ، الَّتِي تُمْرُجُ أحيانًا بِالرُّوحِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الصُّوفِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنَ الْمَلَاخِظِ عَلَى تَرَكَيبِ هَذِهِ الْمَقْطُوعَةِ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَثَالِ نَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ بَسَاطَةِ اللَّفْظِ وَقُرْبِهَا مِنْ لُغَةِ التَّحَادُّثِ الْيَوْمِيَّةِ الْعَادِيَّةِ، وَنَحْنُ نَرَى مِنْ خِلَالِ اسْتِعْرَاضِ هَذِهِ الْقَصَائِدِ الَّتِي يَضْطَرُّ فِيهَا النَّسْقُ التَّعْبِيرِيُّ، وَالصِّيَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْأَصِيلَةُ، أَنَّهُ مُتَمَرِّدٌ عَلَى وَاقِعِهِ اللَّغَوِيِّ، يُحَدِّثُ فِيهِ انْكَسَارَاتٍ وَانْقِلَابَاتٍ ؛ لِيُعِيدَ تَشْكِيلَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ لِبَنَاتٌ مُسْتَحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنْ قَبْلُ، فَهُوَ فِي صِرَاعٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ الْوَاقِعِ الشَّعْرِيِّ، فَمَا أَنْ يَصِلَ إِلَى حَدٍّ بَعِينِهِ حَتَّى يَتَوَرَّعَ عَلَيْهِ وَيَتَجَاوَزَهُ بِذَلِكَ يَجْعَلُ الْمُعْجَمَ فِي تَغْيِيرٍ وَتَجْدِيدٍ مُسْتَمِرِّينَ ⁽²²⁾.

إِنَّا أَنَا نَزِيدُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ شَيْئًا آخَرَ، هُوَ: أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مَسْأَلَةً تَمَرُّدٍ عَلَى الْوَاقِعِ الشَّعْرِيِّ بِقَدَرِ مَا هِيَ تَمَرُّدٌ عَلَى الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ بَعَامَتِهِ، بِشَعْرِهِ وَنَثَرِهِ وَفِكْرِهِ، فَهُوَ أَحَدُ الْأَقْلَامِ الَّتِي تَهْدِمُ هَذَا الثَّرَاثَ وَاسْتِثْصَالَهُ مِنْ جَذْوَرِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ لِلْمُصْحَى، لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلُغَةُ الْبَيَانِ الَّتِي بَهَرَ أَثَمَتُهَا الْمُصَاحِفَةُ مِنَ الْعَرَبِ.

لَقَدْ عَجَزَ مَعَ أَمثَالِهِ عَنِ التَّعَامُلِ مَعَ الْمُصْحَى فِي أَشْعَارِهِمْ، فَتَوَسَّلُوا بِاللُّغَةِ السُّوقِيَّةِ وَالْعَوَامِ، وَقَالُوا: هَذَا شَعْرٌ، وَرَوَّجَ لَهُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى التَّرَاكِبِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا النَّصُّ الشَّعْرِيُّ السَّابِقُ، نَلَاخِظُ أَنَّهُ كَرَّرَ "حِينَ" الَّتِي تُفِيدُ الظَّرْفِيَّةَ الزَّمَانِيَّةَ، وَتَتَضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ بِمَعْنَى إِذَا مَا أَطْلَتِ التَّأْمَلُ فِي وَرْدَةٍ.

لَقَدْ كَرَّرَهَا فِي الْقَصِيدَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَهَذَا ضَعْفٌ، وَلَيْسَ تَوْكِيدًا لَفْظِيًّا كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَى الدِّهْنِ، وَلَقَدْ طَالَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ جُمْلَةٍ فَعَلَ الشَّرْطِ وَجُمْلَةٍ جَوَابِ الشَّرْطِ إِطَالَةً كَبِيرَةً حَتَّى أَوْشَكْنَا أَنْ نَنْسَى الْجَوَابَ.

لَاخِظِ الْإِعْتِرَاضَ الطَّوِيلَ الَّذِي وَقَفَ حَاجِزًا بَيْنَ فَعَلَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ فِي قَوْلِهِ "يَخْضَرُ قَلْبُكَ"، وَكَذَا الْأَمْرُ مَعَ بَقِيَّةِ الْمَقَاطِعِ "يَحْمَرُّ قَلْبُكَ"، ثُمَّ "يَبْيِضُ قَلْبُكَ" ثُمَّ "يَصْفَرُّ قَلْبُكَ".

وَقَدْ اعْتَمَدَ الشَّاعِرُ هُنَا عَلَى الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ "تَطِيلُ، وَتَقُولُ، وَيَخْضَرُ تَرَافِقُ، وَتَجَلُّ، وَيَحْمَرُّ، وَتَعْدُّ، وَتَخْطِي، وَتَنْعَسُ، وَتَسِيرُ، وَيَمْشِي، وَيَصْفَرُّ"، حَشَدٌ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ الْمَجْرَدَةِ وَالْمَزِيدَةِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَرْسُمَ حَرَكَتَ أَحَاسِيْسِهِ اتِّجَاهَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي يَعِيشُهَا فِي تَأْمَلَاتِهِ.

وَأَمَّا اخْضِرَارُ الْقَلْبِ فَلَهُ دَلَالَتُهُ الْارْتِيَا حَ تَجَاهَ الْمَشْهَدِ الرَّؤْمَانِسِيِّ الْمَثْمَلِ فِي الْوَرْدَةِ الَّتِي جَرَحَتْ حَائِطًا، وَلَعَلَّ الرَّمْزَ هُنَا يَعْنِي الْمَرَاةَ الْجَمِيلَةَ الَّتِي جَرَحَتْ بِسُحْرِهَا قَلْبًا مُتَحَجِّرًا وَهُوَ قَلْبُ الشَّاعِرِ مُحَمَّدٍ دَرْوِيَشٍ، فَالْعَلَاقَةُ الْمُحْتَمَلَةُ بَيْنَ الْعِبَارَةِ وَبُعْدِهَا الدَّلَالِيِّ هِيَ عِلَاقَةُ مَلْمُوسَةٍ إِذَا فَهَمْنَا الرَّمْزَ بِالصُّورَةِ الَّتِي فَهَمْنَاهَا وَذَكَّرْنَاهَا .

وَفِي إِطَارِ قَضِيَّةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى قَامَ الْعُلَمَاءُ الْمُحَدِّثُونَ بِبَحْثِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ مِنْ خِلَالِ الْعِلَاقَاتِ الدَّلَالِيَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَنْدَرِجَ فِيهَا، فَدَرَسُوا التَّرَادُفَ (Synonymy) وَالِاشْتِرَاكَ اللَّفْظِيَّ (POLYSEMY AND HOMOPHONY)، وَالتَّنَادُّدَ (Antonia) وَغَيْرَهَا مِنَ الْعِلَاقَاتِ الدَّلَالِيَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُرْبِطَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ، وَلَعَلَّ مَنْ اسْتَثْمَرَ هَذِهِ الْعِلَاقَاتِ مَا يَسْمَى بِنَظَرِيَّةِ الْحَقُولِ الدَّلَالِيَّةِ⁽²³⁾، الَّتِي لَا تُرِيدُ أَنْ تَسْتَطِرِدَ فِيهَا كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الَّذِي يَهْمُنَا هُوَ تَعْرِفُ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ مِنْ خِلَالِ عِلَاقَتِهَا بِالْعَالَمِ الْمَصُورِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبِنَفْسِيَّةٍ أَوْ سِيَكُولُوجِيَّةٍ الْمُتَكَلِّمِ شَاعِرًا كَانَ أَمْ نَاصِرًا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى؛ لِأَنَّ اللَّفْظَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَا يُفْهَمُ مَدْلُولُهَا إِلَّا مِنْ خِلَالِ سِيَاقِهَا التَّرْكِيْبِيِّ، وَنَسَقِهَا فِي عِبَارَتِهَا، وَهُوَ مَا سَمَّاهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِي بِنَظَرِيَّةِ النُّظْمِ، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ قَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا كُلُّ الدَّرَاسَاتِ الصَّنِيعَةِ وَالنَّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةِ.

إِذَا قَوْلُهُ " يَخْضِرُ قَلْبُكَ " جَوَابُ شَرْطٍ لِلْجُمْلَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْأُولَى مُتَسَاوٍ مَعَ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْاِعْتِرَاضِيَّةِ، وَمَعَ فِعْلِ الشَّرْطِ الْمَسْبُوقِ بِظَرْفِ الزَّمَانِ، يُعْطَى بَعْدًا دَلَالِيًّا لِلْفَرْحِ وَالْارْتِيَا حَ.

وَأَمَّا جُمْلَتُهُ " يَحْمَرُّ قَلْبُكَ " فِي قَوْلِ دَرْوِيَشٍ فَمُنْسَجَمَةٌ مَعَ الْمَضْمُونِ الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى صُورَةِ الْأُنْثَى، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إِثَارَةِ غَرِيزِيَّةٍ يَنَاسِبُهَا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ "يَبْيِضُ قَلْبُكَ" فَهِيَ حُلْمُ الشَّاعِرِ فِي طُلُوعِ النَّهَارِ بَعْدَ لَيْلٍ مُقِيمٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي "رُزْقَةِ اللَّيْلِ" فَهِيَ دَعْدَعَةٌ رَمَزِيَّةٌ مِنْ دَعْدَعَاتِ الشَّاعِرِ الْمَقْصُودَةِ، فَكَيْفَ تَنَاسَبَ الرُّزْقَةُ اللَّيْلُ بِجُودِهِ الْمُتَالِئَةِ ؟

ثُمَّ إِنَّ الْعَدَدَ " ثَلَاثَتَا عَشَرَ " فِي قَوْلِ مُحَمَّدٍ دَرْوِيَشٍ، هُوَ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ ثَقَافَةِ الشَّاعِرِ الْأَسْطُورِيَّةِ، الَّتِي تُعْتَبَرُ الْعَدَدُ ثَلَاثَتَا عَشَرَ عَدَدًا مَخُوسًا، وَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَجَالِنَا هُنَا فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ التَّرْكِيْبِيَّةِ الدَّلَالِيَّةِ وَحِينَ قَدَّمَ الشَّاعِرُ الْخَبَرَ شَبَهَ جُمْلَتَهُ فِي قَوْلِهِ "لِي أَمَلٌ فِي الشَّمَاءِ" لَعَلَّهُ قَدَّمَهُ مِنْ قَبِيلِ التَّخْصِيصِ أَوْ الْأَهْمِيَّةِ كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ، وَلَكِنَّهُ حَدِيثٌ عَارٍ لَا يَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى الْإِبْدَاعِ وَالتَّمْيِيزِ التَّعْبِيرِيِّ الَّذِي يَتَجَلَّى لَدَى الشُّعْرَاءِ الْكِبَارِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي

قوله "في الشَّمَاءِ مِنَ الرَّمْلِ وَكَيْفَ يُشْمَى مِنَ الرَّمْلِ، هَذَا مَخْرُونٌ فِي فِكْرِ الشَّاعِرِ وَبَاطِنُهُ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ تَهْوِيَمَاتِ شِعْرَاءِ الْحَدَاثَةِ.
الْقَصِيدَةُ الرَّابِعَةُ: إِنْ مَشَيْتَ عَلَى شَارِعِ
يَقُولُ مَحْمُودُ دُرُوش:

إِنْ مَشَيْتَ عَلَى شَارِعٍ لَأُيَوِّدِي إِلَى هَاوِيَةٍ
قُلْ لِمَنْ يَجْمَعُونَ الْقِمَامَةَ : شُكْرًا !
إِنْ رَجَعْتَ إِلَى الْبَيْتِ، حَيًّا، كَمَا تَرْجِعُ الْقَافِيَةُ
بَلَاءَ خَلَلٍ، قُلْ لِنَفْسِكَ : شُكْرًا !
إِنْ تَوَقَّعْتَ شَيْئًا وَخَانَكَ حَدْسُكَ، فَأَذْهَبْ غَدًا
لَتَرَى أَيْنَ كُنْتَ، وَقُلْ لِلْمُرَاشَةِ: شُكْرًا !!
إِنْ صَرَخْتَ بِكُلِّ قَوَاكِ، وَرَدَّ عَلَيْكَ الصَّدَى
مِنْ هُنَاكَ؟ " قُلْ لِلْهَوِيَّةِ: شُكْرًا !

هَذِهِ صُورَةٌ - كَمَا نَحْسُ - مِنْ صُورِ مَاسَاةِ الشَّاعِرِ فِي مَنْفَاهِ الْإِلْزَامِيِّ فِي بَيْتِهِ،
يُصَوِّرُ فِيهَا الضُّغُوطَ الَّتِي تَمَارِسُهَا إِسْرَائِيلُ عَلَى أَهْلِ الْبِلَادِ، وَهُوَ يُقَدِّمُ هَذِهِ الْوَحْيَةَ
بِخِيُوطٍ مُتَشَابِكَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ فِيهَا مِنَ الْغُمُوضِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

أَمَّا الْبِنَاءُ التَّرْكِيبِيُّ لِلْأَفَاضِ وَالْجَمَلِ وَالْعِبَارَاتِ الشَّعْرِيَّةِ فَقَدْ اسْتَوْقَفْنَا أَوَّلًا
سَيِّطَرَةَ أَسْلُوبِ الشَّرْطِ عَلَى امْتِدَادِ الْأَسْطَرِ الشَّعْرِيَّةِ- إِنْ صَحَّ أَنْ نُسَمِّيَهَا أَسْطَرًا شَّعْرِيَّةً-
فَكُلُّهَا بَدَأَتْ بِأَنْ الشَّرْطِيَّةِ الْمَعْقُوبَةِ بِفِعْلِ مَاضٍ، أَنْظِرْ إِلَى قَوْلِهِ : "إِنْ شِئْتَ وَإِنْ
رَجَعْتَ، وَإِنْ تَوَقَّعْتَ وَإِنْ صَرَخْتَ" .. إلخ.

وَلَكِنَّ الْأَسْلُوبَ هُنَا غَيْرُ مُحْكَمِ اللَّبَنَاتِ ؛ بِسَبَبِ الْإِعْتِرَاضِ بَيْنَ فِعْلِ الشَّرْطِ
وَجَوَابِهِ، وَهُوَ إِعْتِرَاضٌ شَغَلَ حَيِّزًا مِنَ الْمَجْرُورَاتِ الَّتِي يَهْوَاهَا الشَّاعِرُ كَثِيرًا مِثْلُ: "
عَلَى شَارِعٍ، إِلَى هَاوِيَةٍ، إِلَى الْبَيْتِ، لِلْمُرَاشَةِ، بِكُلِّ"; لِيَأْتِيَ جَوَابُ الشَّرْطِ فِي الشَّطْرِ
الْأَوَّلِ "قُلْ"، خَالِيًا مِنَ الْفَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَلْحَقَ بِجَوَابِ الشَّرْطِ إِنْ كَانَ جُمْلَةً طَلَبِيَّةً
كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ، وَقَدْ أَسْقَطَهَا هُنَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ بِقَوَاعِدِ
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

هَكَذَا الشَّعْرُ الْحَرْفِيُّ مَنظُورُهُمْ، إِنَّهُ تَرْكِيْبٌ بَسِيطٌ يَخْلُو مِنَ الْبَهَاءِ، وَيَخْلُو مِنَ
الْجَمَالَاتِ الْإِيْقَاعِيَّةِ الْمُؤَثَّرَةِ .

وَأَنْظُرْ إِلَى الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ الَّذِي اعْتَرَضَ بَيْنَ الْحَالِ وَصَاحِبِهِ فِي قَوْلِهِ: "إِنْ
رَجَعْتَ إِلَى الْبَيْتِ، حَيًّا"، وَكَذَلِكَ الْإِعْتِرَاضُ بَيْنَ فِعْلِ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ: "قُلْ"

لِنَفْسِكَ"، وبقوله "شكراً"، وإنَّ النَّسَقَ نَسَقٌ نَثْرِي لَيْسَ فِيهِ مِنَ النَّظْمِ الْإِيْقَاعِي شَيْءٌ يُذَكِّرُ.

عَلَى أَيِّ حَالٍ، إِنَّ الشَّاعِرَ هُنَا نَوْعٌ فِي الْأَسْلُوبِ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْإِسْتِفْهَامِ، وَالتَّعَجُّبِ، وَكُلُّهَا جَاءَتْ مَشْحُونَةً بِدَلَالَاتِ الْأَلَمِ وَالتَّوَجُّعِ وَالحَيْرَةِ، وَهِيَ دَلَالَاتٌ مَحْدُودَةٌ لَا تَصِلُ إِلَى الدَّلَالَاتِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ الْكِبَارِ، مِمَّنْ عَرَفُوا عَلَى قِيَّاسَةِ الْأَوْزَانِ الْمُحْكَمَةِ وَالصِّيَاغَاتِ الْمُخْتَارَةِ "هَنَّاكَ يَجِدُ الدَّارِسُ نَفْسَهُ أَمَامَ مَسْأَلَةِ قُدْرَةِ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ فِي اللَّغَةِ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الدَّلَالَاتِ، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ الدَّلَالِيَّةُ تَسْمَى بِالتَّعْدُدِيَّةِ الدَّلَالِيَّةِ "POLYSEMIC"، وَالْكَلِمَةُ الَّتِي تُؤَدِّي هَذِهِ الْوُظُفِيَّةَ الْإِشَارِيَّةَ تَسْمَى بِالْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ"⁽²⁴⁾.

الْقَصِيدَةُ الْخَامِسَةُ: كَمَقْهَى صَغِيرٍ هُوَ الْحُبُّ

يَقُولُ مَحْمُودُ دَرْوِيْشُ:

كَمَقْهَى صَغِيرٍ عَلَى شَارِعِ الْغُرَبَاءِ

هُوَ الْحُبُّ ... يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْجَمِيعِ

كَمَقْهَى يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَفَقِ الْمُنَاحِ:

إِذَا هَطَلَ الْمَطَرُ أَزْدَادَ رَوَادُهُ،

وَإِذَا اعْتَدَلَ الْجَوُّ قُلُوبًا وَمَلُوءًا ...

أَنَا هَهُنَا، يَا غَرِيبَ فِي الرُّكْنِ أَجْلِسْ

مَا لُونُ عَيْنَيْكَ ؟ مَا اسْمُكَ ؟ كَيْفَ

أَنَادِيكَ حِينَ تَمْرِينُ بِي، وَأَنَا جَالِسٌ

فِي انْتِظَارِكَ⁽²⁵⁾

مَشَاعِرُ غَرِيبَةٍ تَجْرِي عَلَى سَنَنِ الْحَدَاسَةِ، وَكَأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مُحْدَثٌ يُحْشَرُ فِي رُؤْمَةِ الْغُرَبَاءِ، أَلَمْ يَقُلْ مَحْمُودُ دَرْوِيْشُ إِنَّهُ عَلَى شَارِعِ الْغُرَبَاءِ، وَلَمْ يَقُلْ فِي شَارِعِ الْغُرَبَاءِ، وَلَئِنْ نَدَرِي أَيَّ حُبٍّ هَذَا؟ إِنَّ الشَّاعِرَ هُنَا حَائِرٌ تَائِهٌ، وَضَعْنَا فِي مَتَاهَةٍ لَا أَمَلَ فِي الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا إِذَا فَكَّكْنَا رَمُوزَ هَذِهِ التَّرَاكِيْبِ اللَّغَوِيَّةِ الْغَرِيبَةِ.

إِنَّهُ يَنَاجِي امْرَأَةً وَهَمِيَّةً أَوْ حَقِيقِيَّةً، يَنْتَظِرُهَا فِي شَارِعِ الْغُرَبَاءِ، رُبَّمَا فِي بَلَدَتِهِ، أَوْ فِي مَهْجَرِهِ وَمَنْفَاهُ، هُوَ أَدْرَى بِذَلِكَ مَنَّا..

أَمَّا التَّرَاكِيْبُ اللَّغَوِيَّةُ عِنْدَهُ فَقَدْ جَاءَ عَلَى أَسُسٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِنْهَا التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ، فَقَدْ قَدَّمَ الْخَبَرَ شِبْهَ الْجُمْلَةِ الْمُتَمَتِّدَةِ بِالْمَجْرُورَاتِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَجَاءَ بِخَبَرٍ آخَرَ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً فِي قَوْلِهِ "يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْجَمِيعِ".

يَقُولُ مُحَمَّدٌ صَلَاحُ أَبُو حَمِيدَةَ: "لَا شَكَّ أَنَّ الْبَدْءَ بَتَنَاوُلِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، يُشِيرُ إِلَى أَهَمِّيَّتِهَا وَخُصُوصِيَّتِهَا فِي بَنِيَّةِ الْجُمْلَةِ النُّحَوِيَّةِ عِنْدَ الشَّاعِرِ؛ إِذْ إِنَّ ظَاهِرَةَ تَقْدِيمِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ تُعَدُّ مِنْ أَكْثَرِ الظَّوَاهِرِ تَحَرُّكًا وَبَرُوزًا عَلَى مُسْتَوَى الصِّيَاغَةِ عِنْدَهُ، رُبَّمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: مِيلُ الشَّاعِرِ إِلَى تَحْطِيطِ الْقَوَاعِدِ الثَّابِتَةِ - شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الشُعْرَاءِ الْمُحَدِّثِينَ - عَنْ طَرِيقِ غَرَسِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ فِي مَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةٍ .

الثَّانِي: يَرْجِعُ إِلَى طَبِيعَةِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ؛ حَيْثُ لَمْ يَحْتَفِظْ بِرُتْبَتِهِ مُعَيَّنَةٍ فِي بِنَاءِ الْجُمْلَةِ النُّحَوِيَّةِ عُمُومًا...⁽²⁶⁾

وَهُنَاكَ أَسْلُوبُ الشَّرْطِ الْبَسِيطِ غَيْرِ الْمُعَقَّدِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "إِذَا هَطَلَ الْمَطَرُ"، وَهُنَاكَ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ - الضَّمِيرُ "أَنَا" - وَخَبَرِهِ - شِبْهُ الْجُمْلَةِ "فِي الرُّكْنِ" - أَجْلَسُ، وَهُنَاكَ النَّدَاءُ فِي قَوْلِهِ "يَا غَرِيبَةً"، وَلَعَلَّ مِنَ الْوُضَائِفِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الْإِعْتِرَاضُ فِي الصِّيَاغَةِ، مَا يَتَّصِلُ بِالْجَانِبِ الدَّلَالِيِّ كَالْتَنْزِيهِ، وَالِدُّعَاءِ، وَالشَّعْطِيمِ، وَالتَّأَكِيدِ، وَالتَّغْيِيرِ، وَمِنْهَا مَا يَتَّصِلُ بِالْجَانِبِ التَّأْثِيرِيِّ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَتَلَقِّي؛ حَيْثُ إِنَّ تَحْرِيكَ الْعَنَاصِرِ اللُّغَوِيَّةِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يُؤَدِّي إِلَى انْقِطَاعِ الْخَطِّ الدَّلَالِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَيَسْمَحُ بِبَرُوزِ عُنْصُرٍ غَيْرٍ مُتَوَقَّعٍ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، وَمِنْ هَاتَيْنِ الْعَمَلِيَّتَيْنِ تَتَوَلَّدُ صَدْمَةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِي ذَهْنِ الْمَتَلَقِّي، تَنْبَهُهُ وَتُوجِّهُ عِنَايَتَهُ إِلَى دَلَالَتِهِ مُحَدَّدَةٍ وَمَقْصُودَةٍ⁽²⁷⁾.

وَقَدْ اسْتَعْلَمَ مُحَمَّدٌ دُرُوشَ أَسْلُوبِ الْإِعْتِرَاضِ اسْتِعْلَامًا مُتَنَوِّعًا؛ سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ؛ أَمْ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ، أَمْ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ، كَمَا رَأَيْنَا مِمَّا سَبَقَ فِي أَثْنَاءِ تَصَدِّيقِنَا لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي تَضَاعِيفِ قِصَائِدِهِ.

هَذَا وَقَدْ أوردَ دُرُوشُ فِي الْمَقْطُوعَةِ السَّابِقَةِ مَجْمُوعَةً مِنْ أَسَالِيْبِ الْاسْتِفْهَامِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

مَا لَوْ عَيْنِيكَ؟ مَا اسْمُكَ؟ كَيْفَ أَنَادِيكَ؟ أَسَالِيْبُ اسْتِفْهَامِيَّةٍ مُتَنَالِيَّةٍ، مُتَعَاقِبَةٍ، يَأْخُذُ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ فِي حَرَكَةِ انْفِعَالِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ، وَالْغَرَضُ مِنْهَا الْحِيزَةُ، وَالْإِسْتِغْرَابُ، وَالذُّهُولُ .

إِنَّ مَسْأَلَةَ التَّغْيِيرِ عِنْدَهُ كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْاسْتِفْهَامِ هُنَا هِيَ مَسْأَلَةُ انْفِعَالِ وَحَسَاسِيَّةٍ وَتَوَثُّرٍ، لَهَا مَسْأَلَتُهُ نَحْوُ وَقَوَاعِدِ، وَإِنَّ نِظَامَ الْمُفْرَدَاتِ وَعِلَاقَاتِهَا نِظَامٌ لَا يَتَحَكَّمُ فِيهِ النَّحْوُ، بَلِ الْانْفِعَالُ وَالتَّجْرِيبَةُ⁽²⁸⁾.

وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَدُونِيْسُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، ذَلِكَ أَنَّ نِظَامَ الْمُفْرَدَاتِ وَعِلَاقَاتِهَا مَعَ بَعْضِهَا كَنْظَامِ حَبَاتِ الْعَقْدِ الْمَنْضُودِ، مُتَمَاسِكَةٌ مُتَرَابِطَةٌ يَحْكُمُهَا نِظَامٌ نَحْوِيٌّ

صَارَ، يَنْسَجِمُ مَعَ حَرَكَتِ النَّفْثِ، وَإِيقَاعِ النَّظْمِ بِمُوسِيقَاهُ الْخَارِجِيَّةِ وَالِدَّاخِلِيَّةِ
وَالْخَفِيَّةِ الَّتِي يَكْتَمِلُ بِهَا بِنَاءُ الْقَصِيدَةِ، وَبِدُونِ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ تُرَكِّبُ صَلْباً
لَا يَكُونُ هُنَاكَ شِعْرٌ، إِلَّا لِضَرُورَاتِ أَبَاحِهَا نَقَادُ الشَّعْرِ قَدِيمًا تَحْتَ بَابِ سَمَوِهِ
الضَّرُورَاتِ الشَّعْرِيَّةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ.
الْقَصِيدَةُ السَّادِسَةُ: يَدُ تَنْشُرُ الصَّحْوَ
يَقُولُ مُحَمَّدٌ دُرُوش :

يَدُ تَنْشُرُ الصَّحْوَ أَبْيَضَ، تَسْهَرُ،
تَنْهَى وَتَأْمُرُ، تَنْأَى وَتَدْنُو، وَتَقْصُو،
وَتَحْنُو، يَدُ تَكْسِرُ اللَّازُورَدَ بِإِيْمَاءَةٍ،
وَتَرْقِصُ خَيْلًا عَلَى النَّهْودِ، يَدُ تَتَعَالَى،
تَثْرَثُرُ حِينَ يَجْفُ الْكَلَامُ، يَدُ تَسْكِبُ
الْبَرْقَ فِي قَدَحِ الشَّاي، تَحْلُبُ ثَدْيَ
السَّحَابَةِ، تَسْتَدْرِجُ النَّايَ "أَنْتَ صَدَاي"
يَدُ تَتَذَكَّرُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ عَمَّا قَلِيلُ
يَدُ تَتَلَاثًا فِي أَنْجَمٍ خَمْسَةِ ... تَحْرُمُ
الَّيْلَ مِنْ حَقِّهِ فِي الثُّعَاسِ .. يَدُ تَعْصِرُ
الْمُفْرَدَاتِ فَتَرْشَحُ مَاءً. يَدُ تَتَحَدَّثُ عَنْ
هَجْرَةِ الطَّيْرِ مِنْهَا إِلَيْهَا⁽²⁹⁾.

هُنَا تَتَجَلَّى غَايَةُ الْغَمُوضِ وَالْإِعْمَاضِ الْمُغْلَفِ بِرَمْزِيَّةٍ بَاهِتَةٍ، قَالَ تَعَالَى: أَوْ
كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدُ يَرَاهَا⁽³⁰⁾، فَأَيُّ يَدٍ هَذِهِ الْيَدُ السَّحْرِيَّةُ الَّتِي تَنْشُرُ
الصَّحْوَ أَبْيَضَ، تَنْهَى وَتَأْمُرُ، تَنْهَى وَتَدْنُو، وَكَأَنَّا أَمَامَ حِصَانِ امْرِئِ الْقَيْسِ، حَيْثُ
يَصِفُهُ قَائِلًا:
وَجْهَانٌ مِكْرٌ، مِقْرٌ، مُقْبِلٌ، مُدْبِرٌ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ⁽³¹⁾

خَلِيطٌ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ، تَكَادُ لَا تَجِدُ بَيْنَهَا رَابِطًا عَضْوِيًّا يَنْظِمُهَا فِي نَسَقٍ تَعْبِيرِيٍّ
وَاضِحٍ، فَالشَّاعِرُ يَضْرِبُ فِي أَشْتَاتِ كَلِمَاتٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ مُعْجَمِهِ الْعَجِيبِ، يَرْمِيهَا رُمُوزًا
لِصُورٍ خَاصَّةٍ بِهِ، لَمْ نَقْصِصْ خُطُوطَهَا، وَهَذِهِ رَمْزِيَّةٌ غَيْرُ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي عُرِفَتْ لَدَى
شُعَرَاءِ فَرَنْسَا فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي، كَمَا يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ السَّامَرَايَّ⁽³²⁾.

وَكَانَ التَّكَرُّارُ اللَّفْظِيُّ أَوْضَحَ خُطُوطِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَوْ الْأَسْطُرَانِ صَحَّ الشَّعِيرُ، وَيَعُدُّ التَّكَرُّارُ فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ مِنْ أَبْرَزِ الظُّوَاهِرِ التَّرْكِيبِيَّةِ الْمَاقِلَةِ فِي بَنِيَّتِهِ، فَقَدْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ شَعْرَاءُ الْحَدَاثَةِ اعْتِمَادًا كَثِيرًا يَمُوقُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَسْلَافِهِمْ؛ سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ فِي أَنْمَاطِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ أَمْ فِي دَلَالَاتِهِ الرَّاحِرَةِ، وَقَدْ جَعَلُوا مِنْهُ نَوْعًا مِنَ التَّكْنِيكِ الْفَنِيِّ الَّذِي ثَبَّنَى عَلَيْهِ الْقَصِيدَةُ الْحَدِيثُ⁽³³⁾.

تَقُولُ نَازِكُ الْمَلَانِكَةِ "إِنَّ أَسْلُوبَ التَّكَرُّارِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغْنِيَ الْمَعْنَى وَيَرْفَعَهُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَصَالَةِ، ذَلِكَ إِنْ اسْتَطَاعَ الشَّاعِرُ أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَيْهِ سَيِّطَرَةٌ كَامِلَةً، وَيَسْتَخْدِمَهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا التَّكَرُّارُ نَفْسُهُ بِالشَّعْرِ إِلَى اللَّفْظِيَّةِ الْمُبْتَدَلَةِ"⁽³⁴⁾.

فَقَدْ كَرَّرَ مُحَمَّدُ دَرْوِيشُ لَفْظَةً يَدٌ فِي قَصِيدَتِهِ "يَدٌ تَنْشُرُ الصَّخُورَ" فِي أَحَدِ عَشَرَ مَوْضِعًا، فَهَلْ جَاءَ هَذَا التَّكَرُّارُ مِنْ قَبِيلِ التَّأَكِيدِ اللَّفْظِيِّ الَّذِي يُعَزِّزُ بِهِ فِكْرَتَهُ الْغَامِضَةَ الَّتِي اخْتَفَتْ تَحْتَ رَمْزِيَّةِ اللَّازُورْدِ؟ وَخَيْلِ الْهُونْدِ؟ وَالْأَنْجَمِ الْخَمْسَةِ؟ الَّتِي رُبَّمَا تَكُونُ اسْمَ أَحَدِ الْفَنَادِقِ الْمَشْهُورَةِ فِي دُنْيَا الْعَوَاصِمِ الْعَرَبِيَّةِ.

أَمَّا "سَكَبُ الْبَرْقِ فِي قَدَحِ الشَّاي"، فَهَذَا لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبِيَّةُ بِأَسْرَها وَمَدَنُولاتِها الَّتِي شَغَلَتْ عُلَمَاءَ اللَّغَةِ وَالتَّحْوِ وَالْبَيَانِ.

وَلَقَدْ سَيَّطَرَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ عَلَى الْمَقْطُوعَةِ سَيِّطَرَةٌ بَارِزَةٌ الْمَعَالِمِ، فَقَوْلُهُ: "يَدٌ تَنْشُرُ" جَاءَ نَعْتًا لِحَبْرِ حَذَفٍ مُبْتَدِئَةٍ، وَتَتَابَعَتِ الصِّفَاتُ أَوْ التَّعَوُّتُ أَشْتَاتًا يَرْبِطُهَا رَابِطُ الْعَطْفِ مَرَّةً وَهُوَ الْوَاوُ، وَمَرَّةً تَنْفُصِلُ عَنِ الرَّابِطِ؛ لِتَشْكَلَ خَبْرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

إِنْ قَوَاعِدُ التَّحْوِ بَارَكَانِهَا وَتَرَكَيبُهَا جَاءَتْ مَهْزُورَةً عِنْدَ مُحَمَّدٍ دَرْوِيشٍ، فَهُوَ لَا يَمْتَنُ يَهْدِمُ هَذِهِ الْأُسُسَ؛ لِتَشْكَلَ لِنَفْسِهِ قَوَاعِدَ جَدِيدَةً، وَبَنَى تَرْكِيبِيَّةً مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ تَنْسَجِمُ مَعَ تَوَجُّهَاتِهِ التَّجْدِيدِيَّةِ وَتَضَافَتِهِ اللَّازُورْدِيَّةِ الْهُونْدِيَّةِ، إِنَّهَا عِبَارَاتٌ لَا يَرْبِطُهَا فِكْرٌ وَاضِحٌ، فَمَا هَذِهِ الْيَدُ الَّتِي تَحْلُبُ ثَدْيَ السَّحَابِ، "و تَسْتَدْرِجُ الثَّيَّانِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ..؟"!!!

و نَعُودُ إِلَى مَسْأَلَةِ التَّكَرُّارِ كَلَوْنٍ بَارِزٍ فِي نَسِيجِ بَنِيَّةِ الْقَصِيدَةِ، وَلَا سِيَّمًا تَكَرُّارَ الْكَلِمَةِ "يَدٌ"، وَهُوَ يُعَدُّ مِنْ أَبْسَطِ أَنْوَاعِ التَّكَرُّارِ، وَأَكْثَرُهَا شَبُوعًا لَيْسَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ دَرْوِيشٍ فَحَسْبُ؛ بَلْ عِنْدَ مُعْظَمِ شَعْرَاءِ الْحَدَاثَةِ، إِذْ إِنَّهَا تُعَدُّ خَاصَّةً أَسَاسِيَّةً مِنْ خَصَائِصِ الْبَنِيَّةِ التَّرْكِيبِيَّةِ فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ⁽³⁵⁾، وَتَكَرُّارَ الْكَلِمَةِ عِنْدَ الشَّاعِرِ يَلْعَبُ دَوْرًا دَلَالِيًّا يَرْمِي إِلَى تَأْكِيدِ فِكْرَةٍ مَا، تَرْسِيخًا وَتَعَزِيزًا كَمَا أَلْمَحْنَا إِلَى ذَلِكَ فِيمَا اسْتَعْرَضْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا زَادَ الشَّيْءُ عَنْ حَدِّهِ انْقَلَبَ إِلَى ضِدِّهِ كَمَا يَقُولُونَ مِنَ الدَّرْدَشَةِ فِي حَلَقَاتِ الذِّكْرِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ.

القصيدَةُ السَّابِعَةُ: هِيَ / هُوَ

يَقُولُ مَحْمُودُ دَرْوِيشُ:

هِيَ: هَلْ عَرَفْتَ الْحُبَّ يَوْمًا؟

هُوَ: عِنْدَمَا يَأْتِي الشِّتَاءُ يَمْسُنِي

شَعْفٌ بِشَيْءٍ غَائِبٍ، أَضْفِي عَلَيْهِ

الْإِسْمَ، أَيْ اسْمِي، وَأَنْسَى ...

هِيَ: مَا الَّذِي تَنْسَاهُ؟ قُلْ!

هُوَ: رَعَشُ الْحُمَى، وَمَا أَهْذِي بِهِ

تَحْتَ الشَّرَاشِفِ حِينَ أَشْهَقُ؛ دَثْرِيْنِي

دَثْرِيْنِي!

هِيَ: لَيْسَ حُبًّا مَا تَقُولُ!

هُوَ: لَيْسَ حُبًّا مَا أَقُولُ!

هِيَ: هَلْ شَعَرْتَ بِرَغَبَةٍ فِي أَنْ تَعِيشَ

الْمَوْتَ فِي حُضْنِ امْرَأَةٍ؟⁽³⁶⁾

هِيَ، هُوَ، حِوَارٌ بَيْنَ مُحِبِّينَ، بَدَأَهُ بِشَطْرٍ مِنْ قَصِيدَةِ لُجْبَرَانَ، تَغْنِيهَا فَيَرُورُ مِنْهُ

الْأَرْبَعِينَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْمُنْصَرَمِ، أَوْ عَلَى نَمَطٍ مَسْرُحِيَّةٍ مَجْنُونٌ لِيَلِيَ لِأَحْمَدَ شَوْقِي،

وَلَكِنَّهُ - أَعْنِي الشَّاعِرَ - كَانَ فِي ذَهْنِهِ النَّمُودُجُ الْعَرَبِيُّ مِنْ شِعْرَاءِ الرُّومَانُسيَّةِ

الْفَرَنْسِيِّينَ أَوْ الْبَرِيْطَانِيِّينَ .

وَقَدْ جَاءَتْ قَصِيدَتُهُ عَلَى بَحْرِ الرَّمْلِ "فَاعِلَاتْنِ فَاعِلَاتْنِ"، وَإِنْ كَانَ الْوَزْنُ

يَضْطَرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ أَحْيَانًا، وَأَوَّلُ مَا يَلْفِتُ نَظْرَنَا فِي هَذِهِ الْأَسْطَرِ تَكَرَّرَ ضَمِيرِي

الْغَائِبِ" هِيَ، هُوَ " وَهُوَ تَكَرَّرَ أَحْدَثَ شَيْئًا مِنَ الْمَلَلِ وَالرَّتَابَةِ وَالسَّامَةِ، مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى

النُّفُورِ مِنْ هَذِهِ الْمُعْصِيَاتِ الَّتِي يَضْطَرُّ فِيهَا مَسَارُ الْحَدَثِ تَحْتَ وَطْأَتِهِ مُقْتَضِيَاتِ

الْحَدَاثَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَفْظًا وَتَرْكِيْبًا وَدَلَالَةً.

وَلَوْ أَنَّ الشَّاعِرَ اسْتَمَرَّ يَجْدُفُ فِي بَحْرِ الرَّمْلِ الَّذِي بَدَأَ بِهِ قَصِيدَتَهُ وَهِيَ عَلَى وَزْنِ

"فَاعِلَاتْنِ فَاعِلَاتْنِ"، لَكَانَ أَرْوَعٌ وَأَبْدَعُ، وَلَكِنَّهُ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَهْدِمَ الْمَوَازِينَ الْعَرَبِيَّةَ

عَامِدًا مُتَعَمِّدًا، وَكَأَنَّ التَّجْدِيدَ فِي التَّفْعِيلَاتِ، وَتَحْطِيفِ الْمَوَازِينِ غَايَةً مَقْصُودَةً عِنْدَ

هَؤُلَاءِ.

وَإِذَا مَا وَقَفْنَا عِنْدَ مَسْأَلَةِ الضَّمِيرِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، تَذَكَّرْنَا أَنَّ الضَّمِيرَ لَا يَدُلُّ

عَلَى مُسَمًّى كَالْإِسْمِ، وَلَا عَلَى مَوْصُوفٍ بِالْحَدَثِ كَالصِّفَةِ وَلَا عَلَى حَدَثٍ وَزَمَنٍ

كَالْفِعْلِ؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ الضَّمِيرِ تَنْجُهُ إِلَى الْمَعْنَى الصَّرْفِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَسْمَى مَعْنَى

التصريف، وهي التي تُعبر عنها باللواصق والزوائد ونحوها، والمعنى الصرفي العام الذي يُعبر عنه الضمير هو عموم المتكلم أو الغائب أو الحاضر⁽³⁷⁾، وهذا هو الذي عبر عنه ابن مالك بقوله:

فَمَا لِذِي غَيْبَةٍ أَوْ حُضُورٍ كَأَنْتَ وَهُوَ سَمٌّ بِالضَّمِيرِ⁽³⁸⁾

والحضور قد يكون حضور تكلم كآنا ونحن، وقد يكون حضور خطاب كآنت وفروعها أو حضور إشارة كهذا وفروعها، والغيبه قد تكون شخصيه كما في هو وفروعه، وقد تكون موصوله كما في الذي وفروعه⁽³⁹⁾، ومن هنا فإتينا نرى أن ما يدل عليه ضمير الغائب في بدايات الأسطر الشعرية عند درويش، هو دلالة شخصيه و"هو" ضمير يتعلّق بالشاعر نفسه، إنّه يقصد بالضمير "هو" نفسه، ولربما يقصد إنساناً آخر على سبيل الرمز، وكذا الحال مع الضمير "هي" التي جرّدها خياله أو واقع المرير الذي يحاول الانعتاق منه.

ويبرز في هذه القصيدة أسلوب الاستفهام برؤيا واضحا، ففي قوله: "هل عرفت الحب يوما؟" وفي قوله: "ما الذي تنساه ؟" وقوله: "هل شعرت برغبة في أن تعيش الموت في حُسن امرأة ؟"

و معروف أن الأداة الاستفهامية تلعب دور الأداة الرابطة بين الجمل النحوية المتتالية في السياق الشعري، وأنها العنصر الأساسي لانتظام السياق، والجمل متضامته فيما بينها، وتحكمها العلاقة الاستفهامية البارزة في الصياغة، فعلى الرغم من أن كل جملة توحى بأنها بدء جديد لا علاقة لها بما قبلها أو بما بعدها، فإن السياق الاستفهامي المتكرر ألغى تلك الحدود وأدّابها في بوتقة استفهامية واحدة متلاحمة الأجزاء.

و كما يقوم الاستفهام بعملية ربط بين الجمل، فإن التتابع الزمني في الصياغة يؤدي دورا مهما في هذا المجال، يثوب به عن أدوات الربط اللفظية⁽⁴⁰⁾، هذا هو المفروض في وظيفة الأداة الاستفهامية، ولكنها عند محمود درويش جاءت مضطربة مشوشة، إنّه يريد حرية التعبير كما ينشد الحرية في وطنه، ولكن علينا ألا نخلط بين حرية التعبير وموضوعية التعبير، إنّه يقتقد في قصيدته إلى النسق التعبيري الذي تنضام فيه الكلمة مع سياقها التعبيري، بحيث تكون كل لفظة مرتبطة بما قبلها وبما بعدها؛ لتشكيل تركيباً رابعا.

إنّ الجمل عند درويش تتجاوز تجاوزاً غير طبيعي وغير منطقي وضخ ماهية التجاوز، وتتسع المجوات الدلالية في التركيب بحيث يصعب تضيقها أو التقريب

بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهُوَ يَخْلُطُ بَيْنَ الْحُبِّ وَالشَّتَاءِ، وَالشَّيْءِ الْغَائِبِ، وَالْأَسْمِ الْمَنْسِي، وَرَعَشَتِ الْحُمَى، وَالْهَذْيَانِ، وَبَيْنَ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ تَرَابُطٌ وَاتِّصَالٌ فِي الْمَعْنَى بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ يَأْتِي "المَوْتُ فِي حُضْنِ امْرَأَةٍ"، كَمَا فِي الشَّطْرِ الْأَخِيرِ، وَهُنَا لَفْظَاتٌ دِينِيَّةٌ، وَلَا سِيَّما فِي الْجُمْلَةِ الطَّلِبِيَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "حِينَ أَشْهَقُ: دَثْرُونِي دَثْرُونِي؟"، التَّقَطُّطُهَا ذَاكِرَتُهُ مِنَ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَهِيَ عِبَارَةُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ الْأَمِينُ، وَرَجَعَ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَقَالَ لَهَا: دَثْرِينِي دَثْرِينِي، قَالَ تَعَالَى: [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ] ⁽⁴¹⁾، وَزَمَلُونِي زَمَلُونِي، قَالَ تَعَالَى: [يَا أَيُّهَا الْمُرْمِلُ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا] ⁽⁴²⁾، وَأَمَّا عِبَارَةُ دَرُوَيْشِ "أَنْ تَعِيشَ الْمَوْتَ فِي حُضْنِ امْرَأَةٍ" فَهِيَ مَاخُوذَةٌ مِنَ السَّيْرَةِ كَذَلِكَ: حَيْثُ إِنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثَوَفِي - كَمَا تَقُولُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - "بَيْنَ نَحْرِي وَسَحْرِي" ⁽⁴³⁾، أَي: فِي حُضْنِهَا.

و لَا أَذْرِي إِنْ كَانَ مَحْمُودُ دَرُوَيْشِ قَدْ أَوْرَدَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ عَلَى سَبِيلِ الْيَقِينِ، أَمْ عَلَى سَبِيلِ السَّخَرِيَّةِ، فَهُوَ رَجُلٌ شَيْعَوِيٌّ مُلْجِدٌ، لَا يُؤْمِنُ بِرِسَالَاتِ السَّمَاءِ .

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَزَعِمَ أَنَّهُ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَسَالِيْبَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْخَبَرِ، وَالْإِنْشَاءِ، وَالتَّوَسُّخِ .. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرْقُ بِالنَّصِّ إِلَى مُسْتَوَى الْأَدَاءِ الشَّعْرِيِّ الْمُؤَثِّرِ بِحُسْنِ اخْتِيَارِ لَفْظِهِ، وَجُودَةِ سَبْكِهِ، وَالتَّلَاوُفِ بَيْنَ الصِّيَاغَةِ وَالتَّعَمُّدِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ نَنْفَعِلَ، وَنَتَأَثَّرَ، وَنَحْكَمَ عَلَى مَنْزِلَتِ هَذَا الشَّاعِرِ فِي مِيدَانِهِ، وَكَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ:

الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَمَةٌ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ

فِي بَطْنِهِ غَاشِيَةٌ ثَثَمَةٌ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ ⁽⁴⁴⁾

إِنَّ دَلَالَاتِ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيْبِ وَالصِّيَاغَةِ تَكَادُ تَكُونُ مَخْفِيَةً عِنْدَ مَحْمُودِ دَرُوَيْشِ؛ تَحْتَ رُكَاكِ الْحَدَاسَةِ وَالرَّمْزِيَّةِ كَمَا لَحَظْنَا .

الْقَصِيدَةُ الثَّامِنَةُ: نَهَارُ الثَّلَاثَاءِ وَالْجَوْ صَافٍ

هَذِهِ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ طَوِيلَةٌ، وَلَعَلَّهَا أَطْوَلُ قَصِيدَةٍ نَظَّمَهَا مَحْمُودُ دَرُوَيْشِ إِذْ تَبْلُغُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَطْرًا، وَإِنِّي اقْتَطَعْتُ مِنْهَا بَعْضَ الْأَسْطُرِ الشَّعْرِيَّةِ. يَقُولُ مَحْمُودُ دَرُوَيْشِ:

وَأَمْشِي بِلَا مَوْعِدٍ ، خَالِيًا مِنْ
وَعُودِ غَدِي ، أَتَذَكَّرُ أَنِّي نَسِيتُ ،
وَأَنْسَى كَمَا أَتَذَكَّرُ ؛
أَنْسَى غُرَابًا عَلَى غُصْنِ زَيْثُونَةٍ
أَتَذَكَّرُ بَقْعَةً زَيْتٍ عَلَى الثُّوبِ
أَنْسَى نِدَاءَ الْغُرَالِ إِلَى زَوْجِهِ
أَتَذَكَّرُ خَطَّ النَّمْلِ عَلَى الرَّمْلِ
أَنْسَى حَبِينِي إِلَى نَجْمَةٍ وَقَعَتْ مِنْ يَدِي
أَتَذَكَّرُ فِرْوُ الثَّعَالِبِ
أَنْسَى الطَّرِيقَ الْقَدِيمَ إِلَى بَيْتِنَا
أَتَذَكَّرُ عَاطِفَةً تُشَبِّهُ الْمُنْدَرِينَةَ⁽⁴⁵⁾

هَذِهِ قَصِيدَةٌ أَطْلَقَ الشَّاعِرُ فِيهَا الْعَنَانَ لِذَاكَرَتِهِ ، فَهُوَ يَنْهَلُ مِنْ تَجْرِبَتِهِ الَّتِي
يَنْسَاهَا حِينًا ، وَيَتَذَكَّرُهَا حِينًا آخَرَ ، تَائِهًا هَائِمًا ، فَهُوَ بَيْنَ تَذَكُّرٍ وَنَسْيَانٍ ، يَعْزُضُ
لِلْقَارِئِ فِكْرًا مُشْتَّتًا ، وَهُوَ لَيْسَ بِمُشْتَّتٍ ؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ إِلَى هَذِهِ الْمَتَاهَاتِ قَصْدًا ، فَهُوَ
يَخْرُجُ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَيَخْرُجُ عَلَى فِكْرِهَا ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يَمَزُقَ أَوْصَالَ الْمُتَرَابِطِ
بَيْنَ التَّرَاكِيِبِ عَلَى سَنَةِ مَنْ سَبَقَهُ ، أَوْ عَاصِرَهُ ، مِمَّنْ نَادَى بِهِذِهِ التَّجْدِيدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ .
إِنَّمَا هُنَا نَقْتَعِدُ أَسْرَارَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَدَلَالَاتِهَا ، وَإِيحَاءَاتِهَا الْمُتَأْتِيَّةَ مِنْ حُسْنِ النُّظْمِ ،
وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ ، وَعَبَقْرِيَّةِ الْكَلِمَةِ بِدَلَالَتِهَا غَيْرِ الْمُحَدَّدَةِ ، تِلْكَ الَّتِي تَكْتَسِبُهَا مِنَ
السِّيَاقِ الْمُنْسَبِكِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنَ النَّسَقِ الْمُتَرَابِطِ الْمُنْسَابِ انْسِيَابَ الْجَدُولِ الرَّقْرَاقِ .
لَقَدْ كَثُرَ التَّكْرَارُ بَيْنَ "أَنْسَى وَأَتَذَكَّرُ" ، الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ الَّذِي لَا يَمْتَدُّ إِيحَاؤُهُ ،
وَلَا يَسْتَعْرِقُ زَمَنُهُ الْبَعْدَ الثَّلَاثِيَّ مِنَ الْوَقْتِ كَمَا أَنَّهُ مُشَاهَدٌ بِالْفِعْلِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ " وَأَمْشِي بِلَا مَوْعِدٍ " ، فَالْمَشْيُ عِنْدَهُ تِيَهُ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ " أَتَذَكَّرُ أَنِّي
نَسِيتُ ، وَأَنْسَى كَمَا أَتَذَكَّرُ " ، مَا هَذَا ؟ إِنَّ الْعَلَاقَ الْمَعْنَوِيَّةَ غَيْرَ مُتَمَاسِكَةٍ ، وَالْوَشَاقَ
النَّحْوِيَّةَ غَيْرَ مُتَرَابِطَةٍ ، إِنَّهُ تَكَرَّرَ لِلتَّكْرَارِ وَفَاءً لِمَنْهَجِ الْحَدَاثَةِ ، وَهُوَ مُوَلَّعٌ بِحُرُوفِ
الْجَرِّ ، انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ " بِلَا مَوْعِدٍ ، مِنْ وَعُودٍ ، عَلَى غُصْنٍ ، عَلَى الثُّوبِ ، إِلَى زَوْجِهِ ، عَلَى
الرَّمْلِ ، إِلَى نَجْمَةٍ ، إِلَى بَيْتِنَا ، مِنْ يَدِي ، فَالتَّكْرَارُ وَالْمَجْرُورَاتُ هِيَ الْبِضَاعَةُ الْمُسَيِّطِرَةُ
عَلَى مَايَدَتِهِ ، وَهِيَ بِضَاعَةٌ مُزْجَاةٌ فِي رَأْيِنَا كِبْضَاعَةِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
ثُمَّ إِنَّ دَلَالَاتِهَا الْإِيحَائِيَّةَ لَا تَفِي بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لَدَى نَظْمِ الشُّعْرَاءِ ؛ لِتَجِدَ أَنَّ
لِكُلِّ كَلِمَةٍ مَقَامَهَا الْمُؤَثِّرَ ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ صَوْتَهُ بَالِغُ الْأَثَرِ فِي مُتَلَقِّهِ ، وَلِكُلِّ عِبَارَةٍ
ارْتِبَاطُهَا بِالْمَضْمُونِ الْكَلِّيِّ تَرْكِيبًا وَمَعْنَى وَبَعْدًا شُعُورِيًّا يُلَبِّي نِدَاءَ النَّفْسِ وَالرُّوحِ .

نتائج البحث:

يُمْكِنُنَا بَعْدَ هَذَا الاسْتِعْرَاضِ الْمُتَوَاضِعِ لِبَعْضِ أَشْعَارِ مَحْمُودِ دَرْوِيشٍ أَنْ نَخْلُصَ إِلَى مَا يَلِي:

1. لَقَدْ تَأَثَّرَ الشَّاعِرُ بِالْحَدَاثَةِ تَأَثُّراً كَبِيراً، نَالَتْ مِنْهُ كُلُّ مَنَالٍ، وَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى عِبَارَاتِهِ الشَّعْرِيَّةِ، وَكَلِمَاتِهِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْبَسَاطَةِ فِي تَرْكِيبِهَا، وَالْبَسَاطَةِ فِي مَدَنُوتِهَا، وَالْهَيْئَةِ فِي إِيقَاعِهَا وَنَظْمِهَا.
2. أَمَّا عَلَى صَعِيدِ نَظْمِ الْجَمَلِ، فَقَدْ جَاءَتْ ضَعِيفَةً، لَيْسَتْ جَزَلَةً كَمَا كَانَتْ فِي شِعْرِ عَصُورِ الْأَزْدَهَارِ؛ لِأَنَّ جَزَالَتَ الْكَلِمَةِ تُعْطِي بَعْدًا صَوْتِيًّا مُؤَثِّرًا سَمَوْدً بِالْثَبَرِ stress والتَّغْنِيمِ intonation، وَهَذَا يُسَاعِدُ عَلَى تَحْدِيدِ مَعْنَى الْكَلِمَةِ الْوَارِدِ فِيهَا، إِنَّ هَذَا الْمَدَنُوتِ الْوَاسِعِ وَالْإِيْقَاعَ الْمَوْسِيقِيَّ فَقَدْ عِنْدَ مَحْمُودِ دَرْوِيشِ وَأَضْرَبَ بِهِ وَبِشَعْرِهِ.
3. لَقَدْ لَبَسَ مَحْمُودُ دَرْوِيشُ ثَوْبًا غَيْرَ ثَوْبِهِ، وَلَوْ نَهَجَ نَهَجَ الْمُصْحَاءِ الْمُحُولِ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ كَشَوْقِي وَحَافِظٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَلَى الْجَارِمِ وَمَدْرَسَةِ أَبُولُو الْمُتَجَدِّدَةِ فِي إِطَارِ الثَّرَاثِ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ لِأَنَّ لَدَيْهِ الْإِمْكَانَاتِ الْهَائِلَةَ كَمَا رَأَيْنَاهَا فِي قَصِيدَتِهِ " غُصْنُ الزَّيْتُونِ"، الَّتِي يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا "سَجَلُ أَنَا عَرَبِي"، وَذَلِكَ فِي دِيْوَانِ أَوْرَاقِ الزَّيْتُونِ، حَيْثُ جَاءَتْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ عَلَى نَقِيضِ قِصَائِدِهِ الْأَخْرِيَّاتِ الَّتِي عَالَجْنَاهَا، حَيْثُ رَأَيْنَاهَا هُنَاكَ أَعْنِي فِي دِيْوَانِ — أَوْرَاقِ الزَّيْتُونِ - وَقَدْ عَالَجْنَاهَا فِي بَحْثٍ لَنَا حَكَمَ فِي جَامِعَةِ الرُّقَّاءِ 2011م بِعِنْوَانِ "تَضَافُرُ النَّحْوِ وَالِدَّلَالَةِ فِي دِيْوَانِ أَوْرَاقِ الزَّيْتُونِ" لَدَى مَحْمُودِ دَرْوِيشِ وَنُشِرَ فِي عَامِ 2015، فَوَجَدْنَا هُنَاكَ مَنَاقِبَ تَرْكِيبِيَّةً، وَحُسْنَ صِيَاعِمَةٍ، وَقُوَّةَ بِنَاءٍ، وَتَنَوُّعَ اسْلُوبٍ، أَمَّا فِي دِرَاسَتِنَا هَذِهِ فَوَجَدْنَا رَتَابَةً وَتَكَرُّارًا وَضَعْفًا، وَانْعِدَامًا لِلْجَسِّ، وَغَمُوضًا لِلْفِكْرِ.
4. إِنَّ الشَّاعِرَ فِي تَأَثُّرِهِ بِعِبَارَةِ الثَّرَاثِ سَوَاءً أَكَانَتْ مِنَ الْمَوْرُوثِ الدِّيْنِيِّ أَمْ اللَّغْوِيِّ، يَتَحَرَّكُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وَكَأَنَّهُ مُنْكَرٌ لِهَذِهِ الْقِيَمِ الْخَالِدَةِ.
5. لَقَدْ كُنَّا نَقِفُ حَاضِرِينَ أَمَامَ دِلَالَةِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ مَحْمُودِ دَرْوِيشِ فِي دِرَاسَتِنَا لِديْوَانِهِ هَذَا الْمَوْسُومِ بِـ " كَزْهَرِ اللُّوزِ أَوْ أَبْعَدَ " شَأْنُهُ شَأْنُ غَيْرِهِ مِمَّنْ حَطَبَ فِي حِبَالِهِمْ، بِسَبَبِ شَيْعِ الْخَطَا فِي اللُّغَةِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي اسْتَحْدَمَهَا وَاسْتَحْدَمُوهَا.
6. لَعَلَّ سَعْيَهُ وَسَعْيَهُمْ -أَعْنِي مَحْمُودَ دَرْوِيشَ وَشُعْرَاءَ الْحَدَاثَةِ- وَرَاءَ حُرِّيَّةِ التَّعْبِيرِ أَوْ رَدَّهُمْ مَوَارِدَ فَوْضَى التَّعْبِيرِ، كَلِمَاتٍ بِلَا مَضْمُونٍ، وَكَأَنَّهُمَا أَقْحَمَتِ فِي

سِيَّاقِهَا إِقْحَامًا، وَهِيَ تَتَنُّ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّجْدِيدِ، وَالتَّجْدِيدُ عِنْدَهُمْ مَمَّهْدٌ سَهْلٌ، فَحَسَّبَهُمْ كَمَا يَقُولُ السَّامِرَائِيُّ: بَضَاعَةٌ يَجِدُونَهَا فِي لُغَةِ الصُّحُفِ يَرْتَبُونَهَا فِي أَسْطَارٍ يَقْطَعُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ لَوَازِمِهَا، لِيَأْتِيَ الشَّيْءُ جَدِيدًا وَمَا هُوَ بِجَدِيدٍ⁽⁴⁶⁾.

وَأَخِيرًا أَقُولُ: إِنْ قَالُوا عَنْ مَحْمُودِ دَرْوِيش: إِنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْنَعَ ثَوْرَةً بِشِعْرِهِ، أَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الثَّوْرَةَ غَيْرُ مُنْتَظِمَةٍ، وَلَا مُنْظَمَةٍ؛ لِأَنَّ التَّرْكِيبَ عِنْدَهُ غَيْرُ مُنْتَظَمٍ .

المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، (1990). لسان العرب، ط1، دار الفكر، بيروت.
2. أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة.
3. أبو شريفة وآخرون، عبد القادر (1989). علم الدلالة والمعجم العربي، ط1، دار الفكر، عمان، الأردن.
4. أدونيس، على أحمد سعيد (1978). زمن الشعر أدونيس، ط2، دار العودة، بيروت.
5. امرؤ القيس (1989). ديوان امرئ القيس: حققه ويوبه وشرحه وضبطه: حنا الفاخوري، ط1، دار الجيل، بيروت.
6. الأندلسي، محمد بن عبد الله بن مالك (1991). ألفية ابن مالك في النحو والصرف - ضبط النص على شروح الألفية، خالد الرشيد، ط1، دار الرشيد، المملكة العربية السعودية.
7. بالمر، فرانك (1997). مدخل إلى علم اللغة: ترجمة د. خالد محمود جمعة، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت.
8. بحيري، سعيد حسن (1999). دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة.
9. البخاري، محمد بن اسماعيل (2001). صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، جدة.
10. التوحيدي، أبو حيان (2003). الإمتاع والمؤانسة، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.
11. جبل، عبد الكريم محمد حسن (1997). في علم الدلالة، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
12. جرادات، أسامة كامل جرادات (2004). الأبعاد المعنوية في الوظائف النحوية، ط1، دار الضرقان، الأردن.
13. جنهويتشي، هدى (1995). الأبنية الصرفية ودلالاتها في شعر عامر بين الطفيل، ط1، دار البشير، الأردن.
14. حسان، تمام (1998). اللغة العربية مبناها ومعناها، ط3، عالم الكتب القاهرة.
15. درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ط1، دار الشروق، رام الله.

16. الذبياني، النابغة (2009). ديوان النابغة الذبياني؛ جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ط1، دار سحنون، تونس.
17. السامرائي، إبراهيم (2002). البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن.
18. العجاج، رؤبة بن العجاج (1980). مجموع أشعار العرب "ديوان رؤبة بن العجاج" اعتنى بتصحيحه وترتيبه /وليم بن الورد البروسي، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
19. عمر، أحمد مختار (1993). علم الدلالة، ط4، عالم الكتب، القاهرة.
20. الملائكة، نازك (1978). قضايا الشعر المعاصر، ط5، منشورات الأدب، بيروت.
21. النعمان، طارق (2003). اللفظ والمعنى بين الأيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
22. النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم (1990). المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الهوامش:

- (1) انظر: السامرائي، إبراهيم (2002). البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن
- (2) انظر د. تمام حسان، 1998
- (3) انظر: أبو شريف وآخرون، عبد القادر (1989). علم الدلالة والمعجم العربي، ط1، دار الفكر، عمان، الأردن.
- (4) بالمر، فرانك (1997). مدخل إلى علم اللغة؛ ترجمة د. خالد محمود جمعة، ط1، مكتبة دار العربيت، الكويت.
- (5) النعمان، طارق (2003). اللفظ والمعنى بين الأيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة
- (6) جنهويتشي، هدى (1995). الأبنية الصرفية ودلالاتها في شعر عامر بين الطفيل، ط1، دار البشير، الأردن.
- (7) عمر، أحمد مختار (1993). علم الدلالة، ط4، عالم الكتب، القاهرة.
- (8) جبل، عبد الكريم محمد حسن (1997). في علم الدلالة، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- (9) بحيري، سعيد حسن (1999). دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق.
- (10) أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة
- (11) انظر أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة، 259-286.

- (12) التوحيدي، أبو حيان (2003). الإمتاع والمؤانسة، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، ص256.
- (13) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ط1، دار الشروق، رام الله.
- (14) النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم (1990). المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص550
- (15) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ط1، دار الشروق، رام الله، ص15.
- (16) الذبياني، النابغة (2009). ديوان النابغة الذبياني: جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ط1، دار سحنون، تونس، ص42.
- (17) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، (1990). لسان العرب، ط1، دار الفكر، بيروت، ص188.
- (18) البخاري، محمد بن اسماعيل (2001). صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، جدة، ص27.
- (19) السامرائي، إبراهيم (2002). البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، ص47.
- (20) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص18-19.
- (21) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص21-22.
- (22) انظر أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة، ص61.
- (23) جرادات، أسامة كامل جرادات (2004). الأبعاد المعنوية في الوظائف النحوية، ط1، دار الضرقان، الأردن، ص35.
- (24) بالمر، فرانك (1997). مدخل إلى علم اللغة: ترجمة د. خالد محمود جمعة، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت، ص123.
- (25) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص75.
- (26) أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة، ص276.
- (27) أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، ص260-261.
- (28) انظر أدونيس، علي أحمد سعيد (1978). زمن الشعر أدونس، ط2، دار العودة، بيروت، ص40.
- (29) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص77.
- (30) سورة النور: آية (40)
- (31) امرؤ القيس (1989). ديوان امرؤ القيس: حققه وبوبه وشرحه وضبطه: حنا الفاخوري، ط1، دار الجبل، بيروت، ص45.
- (32) السامرائي، إبراهيم (2002). البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، ص153.

- (33) أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة، ص300.
- (34) الملائكة، نازك (1978). قضايا الشعر المعاصر، ط5، منشورات الأدب، بيروت، ص263.
- (35) أبو حميدة، محمد صلاح (2000). الخطاب الشعري عند محمود دويش، مطبعة المقداد، غزة، ص302.
- (36) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص58.
- (37) حسان، تمام (1998). اللغة العربية مبناه ومعناها، ط3، عالم الكتب القاهرة، ص108.
- (38) الأندلسي، محمد بن عبد الله بن مالك (1991). ألفية ابن مالك في النحو والصرف - ضبط النص على شروح الألفية، ط1، خالد الرشيد، دار الرشيد، ص12.
- (39) حسان، تمام (1998). اللغة العربية مبناه ومعناها، ط3، عالم الكتب القاهرة، ص108.
- (40) الخطاب الشعري عند محمود درويش، ص294.
- (41) سورة المدثر: آية (1) .
- (42) سورة المدثر: آية (1-2).
- (43) البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم - ووفاته رقم الحديث 4450، ج6، 2001، 13).
- (44) العجاج، رؤبة بن العجاج (1980). مجموع أشعار العرب "ديوان رؤبة بن العجاج" اعتنى بتصحيحه وترتيبه /وليم بن الورد البروسي، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص186.
- (45) درويش، محمود (2005). ديوان كزهر اللوز أو أبعد، ص111.
- (46) السامرائي، إبراهيم (2002). البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، 107.